الأخلاق والسلوك الديني في المسيحية

ناصر الحارثي

يسعى الكاتب محسن الخوني في دراسته حول «أخلاقيات السلوك الديني وإشكالاته» إلى دراسة النظام الأخلاقي «الإيثيقي» مبيناً أنَّ الاضطهاد قد يكون مسلطًا على الدين أو مسلطاً باسم الدين، ولقد حاول في دراسته استقراء الاضطهاد باسم المؤسسة الدينية سواء الإصلاحية منها أو التقليدية في المذاهب المسيحية منذ عصر قسطنطين حتى القرن المنصرم، مستخلصًا أهم الوقائع وكذلك إشكاليات الحوار الأخلاقي.

كان اليهود والرومان يمارسون التنكيل على أتباع الديانة المسيحية إلى أن سيطر قسطنطين على الدولة الرومانية وأعلن في براءة ميلانو التساهل مع المسيحيين ليُعلن بذلك انطلاق عهد جديد للمسيحية لتصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، ولكن هذا التغير لم يوقف الخلافات والانشقاقات والتعصب بل إنَّ الاضطهاد الديني استمر ولكن بصورة مختلفة أو تحت غطاء مسيحي؛ حيث طال اللعن والطرد على الكاهن الإسكندري آريوس وذلك بسبب إنكاره أزلية المسيح وإقراره ببشريته، ولقد تمَّ حرق كتبه وإقرار قانون ألوهية المسيح واعتماد أربعة أناجيل فقط بعد أن تعددت الأناجيل وتشعبت وهي (متا ولوقا ومرقس ويوحنا)، وبعد ذلك ظهر صراع جديد حول طبيعة المسيح بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ونتج عن الخلاف طرد نسطور وإقرار قانون الإيمان بأنَّ مريم العذراء والدة الإله، ومن ثم ألغي الاعتراف بالكنسية المصرية القبطية بعد عدم اعترافها بقرار أن للمسيح طبيعتين مُنفصلتين، ولحقت الطائفة المارونية بالكنائس المنفصلة بعد قرار أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين مختلفتين. ومن هنا نجد أنَّ الخلاف في المسيحية غير مرتبط بالمؤسسة وحسب بل إنّه يمس الأصول والعقائد وهو ما أنتج هذه التحزبات والانقسامات والحروب.

عند الحديث عن الإصلاح الكنسي والصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية فإننا نتحدث عن المسيحية في الغرب وليس الديانة المسيحية ككل، حيث بدأ التصادم بين البروتستانتية والكاثوليكية مع دعوة البروتستانتية إلى المسيحية الأولى والصفاء الإنجيلي من خلال العودة إلى الكتاب المُقدس في حين أنَّ الكاثوليكية تنفي هذه المزاعم وترى أنّها الممثل الوحيد للمسيحية، ولقد اتهم البروستانت الكاثوليك بمُمارسة القمع والاضطهاد باسم الدين من خلال محاكم التفتيش والحرق والإعدام والتنكيل بالجثث. في حين يقول الكاثوليك بأن البروتستانتية مارست القمع باسم الدين من خلال الحروب والتواطؤ مع الثورة والتساهل في الدماء. ويمكننا تأمل المذهبين من خلال منظور خارجي والمتمثل في سقوط غرناطة واكتشاف الأمريكتين حيث تمَّ اضطهاد كل من اليهود والمُسلمين في غرناطة في محاكم تفتيش اتَّسمت بالبشاعة والوحشية والتهجير والتصفية العرقية، ولا يُمكن تخطي ما حصل في الأراضي الأمريكية من تصفية في حق شعوب تلك المناطق والتي تمت بمُباركة من الكنيسة الكاثوليكية ثم البروتستانتية فيما يسمى بنظرية الحرب العادلة ولقد هزَّت تلك الحروب ضمير القديس الدومنكاين برتوليمي دي لاس كازاس والذي كتب نصًا بعنوان «العلاقة العابرة في تحطيم الهنود» وذلك بعد مشاركته في الحملات الملكية والتي أدان وحشيتها بشدة، ولقد ذكر أحد زعماء الهنود الحمر وهو يرثي لحال قومه مبينًا إفلاس قيم المغتصب هذه العبارات الخالدة: «إن ربكم يزيدكم قوة كل يوم وسرعان ما ستغطي أعدادكم سطح هذه الأرض، بينما ينحسر عدد أبنائنا بسرعة ...إن رب الرجل الأبيض لا يستطيع أن يُحب شعبنا وإلا لشملهم بحمايته لقد أصبحوا مثل أيتام بلا ملاذ ولا مأوى فكيف نكون إخواناً».

ويرى الكاتب محسن الخوني أنَّ التجارب التي خاضتها المسيحية الأوروبية في الداخل والخارج أدت إلى انتشار موجة الشك في كونية القيم وذلك كردة فعل على الوثوقية الفتَّاكة من خلال كتابات الفرنسي مونتاي والفيلسوف ديفيد هيوم واعتماد ديكارت على منهج الشك في البحث عن الحقيقة، لذا خرجت أوروبا من هذه الحروب الدينية بنتائج حول آليات وأساليب تنظيم العلاقة السياسية بين السلطة والدولة، وكتب جون لوك رسالة في التسامح وانتقد فولتير التعصب واعتبره مرضاً دينياً فتاكاً، ولا حل للخروج من هذه الأزمة الأخلاقية إلا بالروح الفلسفية والتي هي أبلغ داء وأنجع من القانون في مكافحة طاعون التعصب. ولقد حاول ماكس فيبر تحليل العلاقة بين الإصلاح والعلم والأخلاق، وأكد من خلاله علاقة الأخلاق ووجود البروتستانتية في نشأة الرأسمالية وذلك من خلال الذاتية كقيمة أساسية في المذهب البروتستانتي. أضف إلى ذلك التعددية والتي هي من أهم السمات المشتركة بين الرأسمالية والمذهب الإصلاحي. ويتَّسم العلم في الغرب بأنّه المعرفة التي تخلق القوة، وأما علاقة العلم والدين في الأخلاق فإنَّ ماكس فيبر يرى أنَّ الأخلاق قد تكون أخلاق اقتناع أو أخلاق مسؤولية، أما أخلاق الاقتناع فهي تتسم بالذاتية ولا تعطي أي اعتبار للنتائج المترتبة، أما أخلاق المسؤولية فهي محددة بشروط الحرية، وكذلك يرى ماكس فيبر أنَّه من خلال علاقة العلم بالدين انتصرت المعقولية العلمية الأداتية والتي جعلت وعي الإنسان الغربي يشعر بأنَّ الحياة خالية من المعنى وأن الإنسان يعيش في صراع أبدي مع الآلهة وأن القيم فقدت قيمتها وهو ما أدَّى إلى إعلان نيتشه موت الإله في نهاية القرن التاسع عشر وأنَّ القوة هي مبدأ الحياة.

ومن ثم ينتقل الكاتب إلى قضية فلسفية مُهمة نتجت من خلال محاولة الغرب عقلنة السياسة وهي أهمية الوجود الأخلاقي. وتتمثل ردود الفعل حول أهمية الأخلاق في كونية الأخلاق وكذلك في أن العقل هو أقصى درجات الفعل الأخلاقي كما هو الحال في الفلسفة البراغماتية، ولقد تحدَّث أبل عن معقولية الأخلاق وإشكالية إخضاعها للمعرفة وكذلك مدى تأثير إرساء أنماط معقولية في المبدأ الأخلاقي مبيناً أنَّ هذه الأنماط لا تنقص من قيمة المبدأ الأخلاقي بل يمكننا من تصنيف الأنماط المعقولية إلى عدة أصناف وهي معقولية المنطق الرياضية ومعقولية التقنية العلمية ومعقولية الإستراتيجية ومعقولية الاجتماعية التواصلية وكذلك معقولية الحوار. لذلك فإنّ إخضاع الأخلاق للدراسة العقلية لا يجعله في مصاف العلوم التطبيقية وهو أبلغ رد على نسبية الأخلاق. ومن هنا يخلص الكاتب في تحليل فلسفة أبل حول أخلاقية الحوار في أنها لا تدعو إلى التكافؤ بين الطرفين ولا في احترام طبيعة الشخص الآخر المختلف في العرق أو الدين أو الجنس بل في تجاوز الخصوصية والوصول إلى درجة أعلى من نبذ التعصب، وهو منهج المعقولية الأداتية في التعامل مع فلسفة الأخلاق والتي ساعدت الغرب بعد أن تجاوزت الحروب الدينية المقدسة ووصلت إلى منهج حواري أخلاقي يسمح بتحقيق التفاهم والتعايش ونبذ التعصب والحروب. ونجد الكاتب يحاول أن يستقرئ قضية الأخلاق في أوروبا في سياق تاريخي وكيف أن الأخلاق الدينية أسهمت في تأسيس الفلسفات الوضعية ومن ثمَّ نجحت الفلسفات الوضعية في تدشين إيثيقا الحوار والذي ساعد الغرب في الخروج من بوتقة الصراعات والحروب.

m056058@gmail.com